هل تحول العالم فعلا برمته إلى مستوطنات حضرية على حساب الريف؟

د. وليد أحمد السيد
مدير ومؤسس مجموعة لونارد ودار معمار للأبحاث والإستشارات - لندن
sayedw03@yahoo.co.uk

لا أحد يعرف فعلا المرحلة الدقيقة والنقطة الحرجة التي لا رجعة بعدها عندما يتحول العالم إلى مستوطنات "حضرية" ويصبح حضريا تماما, في مقابل الريف الآخذ بالتناقص يوما بعد يوم بفعل الهجرات المطردة التي تكرسها أضواء المدينة المعاصرة. وهل هذه المرحلة أو نقطة اللارجعة قد حصلت أصلا؟ تساؤلات يطرحها الكثيرون من الباحثين والمنظرين في شؤون المدينة الحديثة وعلم الإجتماع الحضري, مثل الباحث (Jeremy Seabrook) في كتابه (Cities) الصادر حديثا عن دار (Pluto) بلندن. وقد عبر عن شيء من مرحلة الغموض هذه والمستقبل المجهول الذي تسير نحو المدنية الحديثة والعالم المؤرخ أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) في كتاب مدن المصير (Cities of Destiny) حين قال:" نحن ننحو باتجاه المجهول, فلا نعرف كيف سيعبر الإنسان عن نفسه, لكن هذا ليس سببا كي لا نبني إطارا حوله, وإلا اتجهت البشرية نحو اللاحكم والعشوائية في التركيب الإجتماعي". مشيرا لأهمية رعاية المنظومتين الإجتماعية والفيزيائية وترابطهما في المستوطنات الحضرية والتي تجسد المدينة أحد مظاهرها أو قمة الهرم البنائي للحضارات الإنسانية وتعكس نجاحها أو فشلها. فما هو حال المدينة المعاصرة وما هي أبرز الجوانب الإيجابية والسلبية فيها في العالمين المتحضر والثالث؟ سؤال كبير تجيب عنه مراجعات متباينة في هذه المساحة ومساحات قادمة. ونبدأ بظاهرة الحضرية والتي وضعت البشرية على سلم المدنية في مقابل الترحال والبداوة, ونطرح بعض الأفكار الأولية المتعلقة بأهمية المدينة كحاضنة للحضارة وما تعنيه المدينة كذاكرة ومحرك إقتصادي للأمة.

**المدينة مقابل الترحال والبداوة**
فقد شكلت نشأة المدن تاريخيا نقلة مهمة في حياة البشرية وانتقالها من مرحلة الترحال المستمر والبداوة لمرحلة الحضرية. واحتياج الإنسان للمدينة نبع من حاجته للمكان المستقر الذي يمكنه من العمل والزراعة والعيش وممارسة نشاطاته المختلفة التي تسمو به عن سائر المخلوقات فضلا عن حاجته لمكان آمن وملجأ يرتاح إليه. فالتجمع الحضري هو المدينة بشكلها الحسي المتمثل بالطوب والحجر, وهي نقطة البداية للمدينة التي قطعت شوطها تاريخيا تجاه الحاضر والمستقبل وتفرعت عن تجمعاتها البدائية مجتمعات القرية. وعلى طول هذا الشوط الكبير للمدينة عبر التاريخ كان تصميم المباني هو المحددات الجانبية لدربها التاريخي, كما أن شبكات تخطيط شوارعها وأماكنها العامة كلها تشكل الذاكرة المدينية التي تحفر في عقل ووجدان ساكنيها. وتتغير المدن تدريجيا بمرور الوقت, لكن أنماط المباني بها من مساجد وكاثدرائيات ومدارس ومعابد ومتاحف ومسارح تحتفظ بقوتها المغناطيسية لجذب القاطنين عبر الأجيال. التجمعات الحضرية تحدد معالم المدن أكثر من أي شيء آخر, فمنجزاتها المعمارية من متاحف ومسارح وشواهد عمرانية تقدم محتوى ثقافيا وحضاريا يحوي المنجزات الثقافية للأمة والتي تتناقلها الأجيال عبر العصور لتقاس عليها ومن خلالها التطورات المعاصرة. ومعظم الحواضر العالمية هي أيضا منارات علم تعكس إشعاعات الحضارة والثقافة والتي تنبني عليها معالم الفن والأدب والفكر العالمي في الحاضر وللمستقبل.

**هجرة مضطردة باتجاه الحضرية:**
وفي الستين عاما الأخيرة منذ الخمسينيات فقد شهد العالم المعاصر زيادة مضطردة في أعداد المهاجرين من الريف إلى المدينة. في العام 1950 لم يتجاوز عدد سكان المدن في العالم النامي أكثر من 14 %, فيما وصل هذا العدد مع بداية القرن الحالي إلى 40% ما يشير لعوامل الجذب المدينية وعوامل الطرد الريفية. وبالرغم من تمييز الكثير من الباحثين لمفهوم "المدينة" في مقابل "القرية" إلا أن هذا التمييز بات صعبا ويزيد صعوبة يوما بعد يوم حيث غزت الصناعة والتقنية الحديثة كل المنعطفات والجوانب في هذا العالم الصغير. فلم تتأثر الزراعة فقط بمدخلات التكنولوجيا, بل شمل ذلك أيضا وسائل المواصلات والإتصالات الحديثة ومظاهر العولمة.

ويشكل نمو المدن العالمية السريع اليوم "ظاهرة" عجيبة بتسارعها "وثورة نموها" غير المسبوقة. لكن معدل هذا التسارع يتباين بشكل ملحوظ بين العالمين المتطور والنامي. ففيما ينمو العالم الثالث بنسبة 2.35 بالمائة سنويا, تقابل هذه النسبة فقط 0.4 بالمائة نسبة نمو سنوية في العالم المتطور, مما يعكس تنامي مجموعات من المشكلات المتفاقمة التي تحفل بها مدن العالم الثالث اليوم والتي تتراوح بين ديموغرافية غير منضبطة وبيئية واجتماعية واقتصادية وسياسية وتنموية وتخطيطية وسواها.

ولجعل المدن آمنة وصحية ومغرية جاذبة للحياة وجبت معالجة مجموعات من الأمور وتغيير الواقع المتدهور من خلال مجموعة مبادرات عالمية في هذا الإطار. فالمدن الصحية المزدهرة, والتي غالبا ما تنمو بتخطيط مسبق وتحت سيطرة ودراسة لصيقة في العالم المتطور, هي موئل العلم والحضارة ومجالا خصبا لازدهار العقل والفكر والفن والأدب حيث تزهو المهرجانات والإحتفالات الموسمية وتنمو العلاقات الإجتماعية ومنظومات اجتماعية من عادات وتقاليد وتراثات تتناقلها الأجيال. فمدن مثل فلورنسا وسالزبورغ وبراغ وغيرها هي مدن ذات شوارع بمقياس إنساني لكنها نشأت عضويا وتنتهي بميادين تحفز اللقاءات الإجتماعية العامة. فهذه المدن هي نواتج تخطيط جيد ولكن في نفس الوقت نموا عضويا طبيعيا, وهي مدن وظيفية ولكن تراعي النواحي الإنسانية بمقياسها وما صممت له. وهي مدن تحركها الإقتصاديات ولكنها في ذات الوقت مراكز إجتماعية تدور بها التفاعلات المجتمعية المختلفة. والمدن تصنعها فئات الشعوب التي تعيش بها وليس البيروقراطية التي تحركها عن بعد ومن الأبراج العاجية. فالأمة لديها القدرات على تطويع وتطوير احتياجاتها "المدينية" وتحقيقها على أرض الواقع بما يلائمها وضمن ثقافتها وحضارتها الخاصة. والمجتمعات الكلية منها والمحلية لديها القدرة على تكوين منظومتها الإجتماعية وتكوين فئاتها المجتمعية المصغرة وجذبها ولايمكن تحقيق ذلك اصطناعيا بل بمنهجية وآلية طبيعية. وبمرور الوقت تبدو الحاجة أكثر فأكثر, نظرا لعوامل الزيادة السكانية الطبيعية المضطردة أو نتيجة الهجرات القسرية وغيرها, لتوسع المدن. ومشكلة توسع المدن هي مشكل أزلية أبدية عانت منها المدينة على مر العصور – وبخاصة في مدن القلاع في العصور الوسطى التي كانت الزيادة السكانية ودوافع التوسع تتحدى الأسوار المنيعة التي كانت تتحصن خلفها. وهي مشكلة عانت منها المدينة العربية التقليدية التي وصفتها بعض الدراسات الحديثة المبتدعة "بالإسلامية" ووضعتها ضمن نمطية مقولبة تدحضها الكثير من الأطروحات التي تستند للمنطق ومنها أطروحة الباحثة في هذا المضمار (جانيت أبو لغد)- والتي سنعرض لها في مساحة قادمة. فكان من أبرز آفاتها كمثيلاتها من مدن العصور الوسطى المسورة هي مشكلة التمدد والزحف العشوائي الذي يصطدم بحواجز الأسوار أو المحيط الطبيعي. ولكن المدينة والقائمون عليها في العصر الحديث, وبالذات في المدن الغربية الثرية في العالم الصناعي, كانوا أكثر ذكاء في التخطيط المسبق ودراسة احتياجات المدينة بناء على منظومة مرتبطة بخطط "مستقبلية لمجموعات من السنين" تعالج مشكلات النقل والنمو الديموغرافي والتوزيع الوظيفي-الفيزيائي وتوزيعات المجموعات الإجتماعية في المدينة وغيرها مما يجعل لها ديمومة أكثر من مدينة "اللاتخطيط" النامية عشوائيا كجزيئات ممتدة بكافة الإتجاهات. ومن اللافت أنه وبالرغم من هذه العشوائية التي قامت عليها مدن الماضي وبخاصة في العالم الثالث, إلا أنه يصعب تصديق أن هناك دراسات تجتهد في البحث في وجود "أسس" تخطيطية لهذا النمو العشوائي الفاضح!! فضلا عن تقديمها كأسس ناجعة لمعالجة المدينة الحديثة بمتغيراتها المعاصرة!!!

وبالرغم من تدهور أوضاع المدن في العالم الثالث إلا أن بعض الدراسات التي تجريها بعض المؤسسات العالمية المتخصصة في متعلقات الحضرية والنمو تلاحظ أن مدن العالم الثالث بشكل خاص تظهر في مواجهة ضغوطات السكان غير الإعتيادية, ولكنها وبالرغم من ذلك فإنه بمقدورها النزوع نحو إيجاد حلول لمشكلاتهم. فالكثير من الأمثلة تثبت أنه حيث تبرز قوة الإرادة في غياب عجز السلطة عن التدخل لمعالجة مشكلات المدينة, فضلا عن طرح تخطيط مسبق للمدينة أصلا, ينحو السكان نحو تحسين ظروفهم بما يسمح به الحال والظروف وبخاصة في مجالات الإسكان والتوطين الإجتماعي. فالكثير من المدن في العالم الثالث تفتقر لميزانيات الإسكانات, ولكن ففي حالة إتاحة المجال للسكان للبحث عن حلول طبيعية لإيجاد مأوى لهم غالبا ما تتوفر الحلول العملية التي تبرز فيها البساطة والجمال والتوفير الإقتصادي العملي والناجع.

**مشكلات المدينة – مركز المدينة الطارد للحياة الإجتماعية:**
المدينة كانت وما تزال مكانا آهلا مملوءا بالحياة البشرية والقاطنين حيث تدور التفاعلات الإجتماعية والحياتية المعيشية للبشر حيث تمارس العبادة والعمل والقضاء ومختلف أنماط الحياة بحيث غدت المدن مكانا لصناعة المال أيضا. وفي السنين الأخيرة أضحت المدينة موئلا للرأسمالية وتجاذباتها واهتماماتها لصناعة المال وتحقيق المصالح المادية مما بات يتضارب ومصالح القاطنين بها في أحيان عديدة, فالمكاتب وناطحات السحاب العالية حلت محل الإسكانات في وسط المدينة وفي أماكن استراتيجية منها أصبحت تقاس قيمتها بمسطرة الرأسمالية والمنفعة المالية, وكذا الحال في مواقع الاسواق وأماكن العبادة التي أفسحت الطريق للمكاتب والبنوك لتحتل مواقع مهمة بالمدينة. ومن هنا ففي الكثير من المدن في العالم بدأ مركز المدينة الحضري وقلبها التاريخي يفقد أهميته كذاكرة مهمة للمدينة وتاريخها وعراقتها في مقابل مجمعات معاصرة وحديثة لا تعكس ذاكرة وحس المكان أو الطابع المعماري العريق والأصيل. كل ذلك تمت التضحية به في سبيل الرأسمالية والمصلحة المادية التي اجتاحت المدينة ومحركي الإقتصاد بها. فالأبنية النمطية حلت محل التقليدية التي ترعرعت بها الحرف اليدوية والتقليدية, فضلا عن تغير شبكات المواصلات بها فالشوارع العريضة للسيارات حلت محل طرقاتها التقليدية التي صممت لعربات الخيول. وبذا غدت المدينة ذات الأبراج العالية مكانا غير مضياف وطاردة للسكن وبحيث أصبحت مراكز المدن الحضرية الحديثة أماكن تلعب فيها الرياح بعد ساعات الدوام الرسمية حين تقفل المكاتب أبوابها.

فمركز المدينة هو قلبها النابض وهكذا ينبغي, برغم أنه قد لا يسكنها الغالبية من السكان او يحتوي على مرافق سكنية, لكنه مركز الفعاليات بها والأسواق والمشاغل والمقاهي والمسارح والتي تستمر بتوفير طقوس فعالياتها الإجتماعية بين فئات المستخدمين المتنوعة. فمراكز المدن هي الأوعية التي تمتزج بها أنشطة البشر وعبقريات إبداعاتهم. كما يجب أن تكون مركز التفاعلات الثقافية المختلفة بين الحضارات الأخرى حيث يمكن لمن ينتمون لثقافات أخرى من القدوم والإمتزاج والإنخراط بفعالياتها والتعلم. وهذا التمازج هو من الأهمية بمكان في عالم متسارع التطورات التكنولوجية وعولمة الإتصالات. ومن الجدير ملاحظة أن التعددية الثقافية الحضرية قد تتسبب أحيانا في تصادمات وتضادات بين الأفراد من الحضارات المختلفة لكنها أيضا تفسح المجال للتعددية والحوار والتسامح. ومن المهم لمستقبل المدينة عدم "خنق" أو تقييد هذه التعددية بل تشجيعها على الدوام. فمدن اليوم العظيمة هي مدن عالمية لما بها من تعددية ثقافية بإيجابياتها وسلبياتها, فهي نماذج عملية للكيفية التي يمكن للأفراد بها من التعلم كيف يمكن التعايش مع غيرهم في عالم مطرد التغير فيما يتعلق بالإعتماد على الذات. وللحديث بقية.

وليد أحمد السيد
لندن في 19 مايو 2009